الحياة الطيّبة
السنة ١٩
العدد ٣١
صيف ٢٠١٥ م
قراءات علميّة

موقع الدلالة المصطلحيّة للتداخليّة في قراءة التراث عند طه عبد الرحمن

الدكتور محمد بنعمر[1]

مقدّمة:

من الظواهر الثقافيّة والفكريّة التي تستوقف الدارس، والباحث والمتابع لمسار التراث العربيّ الإسلاميّ في تطوره التاريخيّ؛ هو ذلك التداخل القائم بين العلوم التي نشأت في أحضان هذا التراث. حيث إنّ العلاقة التداخليّة والتكامليّة كانت هي السمة البارزة، والوصف الغالب، والعنصر المهيمن على جميع العلوم التي نشأت في هذا التراث، وتطوّرت في أحضان الثقافة العربيّة الإسلاميّة..[2].

وهذا التداخل القائم بين العلوم، استوقف كثيراً من الدارسين، وأثار عدداً من الباحثين؛ وهو ما جعلهم يتوجّهون نحو البحث عن الأسباب، وينقّبون عن الدواعي، ويرصدون النتائج والآثار التي كانت من وراء هذا التداخل والتكامل القائم بين العلوم التي نشأت في التراث العربيّ الإسلاميّ. والذي كان حاضراً بقوّة، وقائماً بشكل لافت للانتباه بين عدد من العلوم، وخاصّة العلوم التي توجّهت نحو خدمة القرآن الكريم. وهي العلوم المسمّاة بعلوم الفهم، وعلوم البيان والاستمداد؛ وهي العلوم

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ وعضو في فريق قراءة الوحي بمركز الدراسات والبحوث، وجدة – المغرب.

(2) انظر: ملكاوي، حسن: منهجيّة التكامل المعرفيّ: مقدّمات في المنهجيّة الإسلاميّة، منشورات المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 2012م.

المنعوتة، والمسمّاة بالعلوم المقصودة لغيرها، أو علوم المقاصد...

ومن هنا، أصبحت فكرة التداخل بين المعارف والعلوم،من أكثر المواضيع اهتماماً، ومن أهمّ القضايا استحضاراً، ومن أبرز المفاهيم عناية في الأوساط التعليميّة والأكاديميّة في الآونة الأخيرة، ولا سيّما بين الدارسين والباحثين والمنشغلين بالدراسات التراثيّة عامّة، والدراسات القرآنيّة..

ومن أبرز الأسباب التي ساهمت في هذه التداخلية؛ هي: محوريّة النصّ القرآنيّ في الثقافة الإسلاميّة؛ إضافة إلى خدمة بعض العلوم لبعضها الآخر، وتبعيّة بعضها لبعضها الآخر بشكل مباشر؛ وخدمتها للنصّ القرآنيّ؛ خاصّة في تجلّياته المؤسّسة، وعناصره المركّبة له. فقد اتّجهت جميع العلوم الإسلاميّة إلى النصّ؛ لبيانه واستمداد المعنى منه. وهو المعطى الذي يسمّيه الدكتور طه عبد الرحمن بالمحدّد اللغويّ في المجال التداوليّ العربيّ الإسلاميّ. وهو المحدّد الكاشف عن موقع اللغة في التراث العربيّ الإسلاميّ.. فالنص في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، هو المحور والمركز والمرجع في هذه الثقافة.

ويُعدّ مصطلح التداخليّة بين العلوم، من أبرز، ومن أكثر، المصطلحات حضوراً وتداولاً في كتابات الدكتور طه عبد الرحمن ومؤلّفاته؛ ولا سيّما في كتابه «**تجديد المنهج في تقويم التراث**».

فلقد سعى الدكتور طه عبد الرحمن في مشروعه الفلسفيّ إلى تشييد الفعل الفلسفيّ وتأسيسه؛ انطلاقاً من تحرير مفاهيمه المتداولة في هذا الخطاب، وتوصيف المصطلحات المشتغلة فيه؛ تحريراً يقتضيه المجال التداولي الذي استعملت فيه، وتُدُولِت فيه؛ سواء في بداية تشكّلها، أوفي المرحلة التي تلي، وتعقب هذا التشكّل بفعل الاستعمال، والتداول، والاستخدام...

ومن ثمّ فهو يسعى إلى تأسيس نظرة جديدة حول التراث العربيّ

الإسلاميّ؛ بمقاربات جديدة، تستجيب للحظة الحضاريّة الراهنة. وتقوم باحترام السياق الذي أُنتج فيه هذا الخطاب، والفصل بينه وبين غيره من الخطابات الفلسفيّة[1].

وكان الدكتور طه عبد الرحمن يراهن في هذا السعي على أن تحصيل المعرفة؛ باختلاف أنواعها، يبدأ بتحقيق المفاهيم؛ وهو الأمر الذي يحتاج إلى ضرورة إعادة النظر في كثير من المفاهيم التي نستعملها وتداولها ونستخدمها؛ خاصّة في تحصيل معارفنا وأفكارنا، ولا سيّما المفاهيم التي أخذت من أصولها الأجنبيّة، وانسقنا في استخدامها دون أن نتمكّن من استيعابها، أو إرجاعها إلى أصولها الأصليّة، من هنا وجب لزوماً إعادة النظر في هذه الاستعمالات...[2].

وفي هذا المسعى، كان القصد الاسميّ من مناصرة منهج التداخليّة في القراءة؛ هو السعي إلى جعل القراءة التي تتأسّس على منطلق المنهج التداخليّ؛ من شأنها أن تسلك بالقارئ العربيّ، وتنتهيبه إلى نتيجة الاعتزاز بالتراث الذي صنعه أجداد هو أمّته، بدل التعلّق بالتراث من صنع أمّة سواه..[3].

واقتناعاً منه بهذا الخيار العلميّ الصعب، فقد اختار الاشتغال على التداخليّة؛ من حيث هي مفهوم معرفيّ، ومكوّن أساس من مكوّنات الجهاز المفاهيميّ المتداول والحاضر في متنه وكتاباته. وهو المسعى المرجعيّ، الذي جعله يسعى إلى مقاربته لهذه العلوم التراثيّة ومتابعتها؛ سواء في مرجعيّاتها، أو في سيرورتها وتحوّلاتها، وفي سياقاتها؛ سواء في بعدها الداخلي، عن طريق إبراز الأنساق التداخليّة المشيّدة للعلوم، من حيث رصده لهذه العلوم، في تطوّرها، ومن حيث تتبّعه لمسارها، ومن حيث

(1) انظر: همّام، محمد: «طه عبد الرحمن قارئاً لمحمد عابد الجابريّ»، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد:3- 4،2011م، ص71.

(2) انظر: عبد الرحمن، طه: الحوار أفقاً للفكر، الشبكة العربيّة، 2013م، ص143.

(3) انظر: عبد الرحمن، طه: أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط3، المركز الثقافيّ العربيّ، 2007م، ص19.

وقوفه على تفاعلها مع باقي العلوم التي كانت محتضنة، ومحمولة في التراث العربيّ الإسلاميّ. أو سواء في بعدها الخارجيّ؛ بإبرازه ورصده ومتابعته للمؤثّرات الخارجيّة، التي ساهمت من قريب، أومن بعيد في تشكيل هذه العلوم؛ من حيث التطوّر والمسار الذي قطعته...

ولتحقيق هذا المشروع، وهذا المبتغى؛ كان من الضروريّ النظر في الآليّات التي أنتجت مضامين، التراث العربيّ الإسلاميّ ونصوصه؛ وهذا التوجّه والاختيار هو منفذ التخلّص من النظرة القطاعيّة في مدارسة التراث العربيّ الإسلاميّ...[1].

إنّ هذا المشروع الحامل لمنهج التداخليّة؛ من حيث هي آليّة في القراءة، والذي تجسّد في مجمله في مجموعة من كتبه، وأبحاثه، ومداخلاته،وبخاصّة في كتابه «**تجديد المنهج في تقويم التراث**». فقد اتّجه إلى الاشتغال على مرجعيّة التداخليّة بين العلوم، حيث صرّح الدكتور طه عبد الرحمن في أكثر من مناسبة، وفي أكثر من موضع؛ بأنّ التداخليّة بين العلوم؛ كانت من أبرز الآليّات التي اتّخذها، ومارسها، واستند عليها، واستعان بها في مدارسته،ورصده لتاريخ العلوم، في مسارها التاريخيّ الذي قطعته، ومرّت منه؛ وهو الخيار الذي التزم به في مدارساته للتراث العربيّ الإسلاميّ، أو في إنجاز بحوثه التي انصبّت على الآليّات، والأنساق المنتجة لهذا التراث، وللمفاهيم المحمولة فيه، والتي بها سمّيت تلك الآليّات.

ويعدّ مفهوم التداخليّة من أبرز المفاهيم التي يرى طه عبد الرحمن لزوم الاستعانة بها في قراءة التراث العربيّ الإسلاميّ، أو في فهم الآليّات المنتجة لهذا التراث، أوفي التحقّق من المفاهيم المتداولة، أو في مقاربة المضامين والمحتويات؛ لأنّ النصّ التراثيّ في بنائه الداخليّ مؤسّس ومشيّد على هذه الآليّة المنتجة له، والتي كانت قائمة بين العلوم، وحاضرة

(1) انظر: بن عدي، يوسف: مشروع الإبداع الفلسفيّ: قراءة في أعمال الدكتور طه عبد الرحمن، الشبكة العربيّة، 2013م، ص41.

فيه بشكل جليّ، وبخاصّة في نسقيّة العلوم المشيدة للتراث..

إنّ التداخليّة ستكون بدون شكّ المنطلق لبداية عهد جديد في تأسيس النظرة الجديدة للتراث العربيّ الإسلاميّ؛ وهو الأمر الذي لا يتأتّى، ولا يتيسّر؛ إلا بفهم اعوجاج القراءات التي عملت على إسقاط مفاهيم ومناهج الغرب بالقوّة على هذا التراث، وبدون وعي بمرجعيّاتها الثقافيّة، وبأصولها الحضاريّة..

أولاً: المنطلقات المعرفيّة لتأصيل منهج التداخليّة:

1. تقويم اعوجاج الخطابات الفلسفيّة:

إنّ البدايات الأولى، في تأصيل هذا المفهوم، تكمن في الشروع بتقويم اعوجاج الخطابات الفلسفيّة، والفكريّة التي قاربت التراث العربيّ الإسلاميّ؛ بآليّات ومناهج منقولة؛ ومنها: المنهج التجزيئيّ الذي ناصره بعض الباحثين والدارسين العرب.

فقد عمل الدكتور طه عبد الرحمن على نقد النظرة التجزيئيّة للتراث؛ من حيث إنّ هذا النقد هو الخطوة الأوّليّة والأساسيّة؛ من أجل بناء النظرة التكامليّة التداخليّة للعلوم وتأسيسها ودعمها.. تلك النظرة التي تقوم على التسليم المبدئيّ بتكامل المعارف والعلوم؛ من حيث خدمة بعضها لبعضها الآخر[1]، وبخاصّة من حيث الهدف الذي تؤدّيه هذه العلوم، ومن حيث الوظيفة التي تؤدّيها؛ وهو ما أدّى إلى مصادرة الدعاوي المتّجهة إلى التوجّه نحو التجزيئيّة، والقول بالتفاضليّة بين الحقول المعرفيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة...

وفي هذا السياق، يدعو طه عبد الرحمن إلى قراءة النقول الفلسفيّة؛ انطلاقاً من اللغة التي كُتِبَت بها، وليس باللغة التي نقلت إليها هذه

(1) انظر: ماجد، أحمد: الفلسفة والمسألة الاصطلاحيّة عند الدكتور طه عبد الرحمن، مجلة المحجّة، بيروت، العدد16 (عدد خاص عن الدكتور طه عبد الرحمن)، 2011م.

النصوص؛ حيث يقول: «**إذ كان نفوري شديداً من النقول العربيّة للنصوص الفلسفيّة؛ قديمها، وحديثها؛ لانتهاج هذه النقول، واعتمادها على الترجمة الحرفيّة،فاستقرّ في صدري أنّ اختلاف الآليّات اللغويّةبين الأصول والنقول؛ من شانه أن يؤدّي بصاحبه إلى اختلاف في وجوه التفكير**»[1].

وتبعاً لهذا التحذير، من ضرورة التحقّق من النصوص الفلسفيّة؛ انطلاقاً من أصولها وآليّاتها، وليس عن طريق البحث عن مفاهيم موجودة في الأصل في ثقافة الغرب، والعمل على استنساخها من غير نقد أو مراجعة أو تمحيص لها.

إنّ هذا العمل يتعارض كلّيّاً مع مقتضيات البحث العلميّ... خاصّة، وأنّ من عواقب هذا الفعل هوعدم التمثّل والتمكّن من كثير من المفاهيم التي أنتجها الغرب بلغته الخاصّة...

ومن شأن هذا العمل المتعلّق بالقصور في عدم التمكّن من المفاهيم المنقولة؛ أنّه أدّى إلى كثير من النتائج الفاسدة عن التراث. بل أدّى إلى تحوير كثير من المفاهيم وتحريفها[2]، تلك المفاهيم الحاضرة في الحقول المعرفيّة في هذا التراث؛ وهو ما كان داعياً إلى مراهنة الدكتور طه على إعادة تجديد المفاهيم المنقولة[3].

2. احترام المجال التداوليّ العربيّ:

وللوصول إلى الغرض؛ كان من الضروريّ الانطلاق من فحص الآليّات المستخدمة والمستعملة في قراءة هذا التراث.. والانطلاق في هذا الفحص من عرض تلك المفاهيم على محكّ النقد والنظر؛ حتى تتمّ معرفة مناسبتها أو معارضتها للمجال التداولي الذي تمّفيه إنتاج هذا التراث..

ومن تبعات هذا الاحترام، هو الانطلاق من البناء من الذات؛

(1) عبد الرحمن، طه: رسالة في المنطق الاستدلاليّ، مجلة كلّيّة الآداب، الرباط، العدد12، 1986م.
(2) انظر: عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص143.
(3) انظر: عبد الرحمن، طه: روح الحداثة، ص14.

«فلقد غلب على الباحثين العرب، وضع مصطلحاتهم العلمية، وبناء أجهزتهم الوصفيّة والتفسيريّة، بقوالب ومعايير اللغة الأجنبيّة الفرنسيّة والإنجليزيّة، فلا تكاد تجد معظمهم من الكفاءة العلميّة؛ إلا ما كان نقلاً حرفيّاً لمصطلحات أجنبيّة من غير وعي بأصلها[1]، التي منها استمدّت وأخذت تلك المفاهيم...

إنّ المفاهيم المشكّلة للمجال التداوليّ، لها مجموعة من المرجعيّات والمحدّدات؛ أبرزها: المحدّد اللغويّ الذي به يتميّز المجال العربيّ الإسلاميّ. فالمجال؛ كما قال الدكتور طه عبد الرحمن في أكثر من مناسبة، يعتمد أساساً على المحدّد اللغويّ؛ باعتباره وسيلة للتخاطب، والتفاهم، والتبليغ عن المقاصد والإغراض؛ بهدف تحقيق الإفادة والإقناع.

3. الاعتزاز بالتراث والنقول الفلسفيّة الإسلاميّة:

إنّ الدكتور طه عبد الرحمن يعتزّ بالتراث، الذي صنعته الأمّة الإسلاميّة؛ لأنّه يحمل مجموعة من القيم التي كانت من وراء إنتاج هذا التراث، ويعارض الدعوات الساعية إلى التكرّر، أو المصادرة، أو التنقيص من قيمة هذا التراث، ويعرّف التراث بأنّه: «عبارة عن جملة المضامين، والوسائل الخطابيّة، والسلوكيّة التي تحدّد الوجود الإنسانيّ.. بصفة عامّة...»[2]. ويرى أنّ قوّة التراث العربيّ الإسلاميّ تتجلّى في العلوم والمعارف العمليّة والشرعيّة والأخلاقيّة التي أبدعها علماء الإسلام على مرّ العصور الإسلاميّة، في حين أنّ منتوجهم الفلسفيّ غلب عليه النقل والتقليد، وغاب عنه الإبداع...[3].

وبناءً على هذا التعريف للتراث، فقد انتقد دعاة الانقطاع على التراث؛

(1) انظر: عبد الرحمن، أصول الحوار وتجديد علم الكلام، م.س، ص19.

(2) عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص123.

(3) انظر: مداخلة الدكتور طه عبد الرحمن في مؤتمر «الإبداع الفكريّ بين التكامليّة للعلوم والمنظور التأثيليّ لاستشكال المفاهيم، المؤتمر الدوليّ الأوّل حول المشروع الفكريّ عند الدكتور طه عبد الرحمن»، جامعة ابن زهر، كلّيّة الآداب في اكادير، المغرب، 27 فبراير2014م.

بسبب أنّ هذا الانقطاع غير ممكن، ولا متيسّر، وليس بالسهل الوصول إليه؛ لأنّ التراث العربيّ الإسلاميّ متجذّر في الذات، وحاضر في الذاكرة، وليس بالسهل التقاطع والتباعد معه، فهو حاضر في الذاكرة بقوّة، وملازم للوجود الإسلاميّ، وبالتالي، فليس من السهل الانسلاخ عنه، أو الابتعاد عنه؛ بأي وجه من الوجوه.

ومن هنا، فقد عمل الدكتور طه على نقد القراءات التي سعت إلى قراءة التراث؛ بمقتضيات منهجيّة؛ هي من خارج الممارسة التراثيّة[1].

كما عارض العمل على البحث في مفاهيم موجودة عند الغرب، وفي ثقافته، وفي تراثه، وتسليطها، وتنزيلها بالقوّة على التراث الإسلاميّ من غير نقد، أوتمحيص،أومراجعة لهذه المفاهيم الدخيلة والمنقولة من ثقافات أخرى. بل من غير التمسّك، أو التأكّد بآليّاتها وبمكوّناتها وبمرجعيّاتها التي فيها تأصلّت، وفيها نشأت، ومنها تطوّرت...

وهذا الاختيار في النقل من دون مراجعة؛ من الأمور التي تتعارض كلّيّاً مع البحث العلميّ، في سياقاته وتطوّراته؛ وهو ما يعارضه الدكتور طه عبد الرحمن صراحة، وفيجميع نصوصه...

وعلى هذا الأساس، فإنّ الدكتور طه عبد الرحمن يصرّح بأنّ كلّ منقول إلينا؛ مُعتَرَض عليه، بل مُنتَقَد؛ حتّى يدلّ الدليل على صحّته، وكلّ مفهوم مأصول مقبول حتى يقوم الدليل على بطلانه...وبناء على هذا «إنّ المفهوم المنقول إلينا أصلاً مفصول عنّا؛ إذ ورد علينا من ثرات غيرنا، فيتعيّن علينا أن نخضعه لإجراء النقد، لا تنقيصاً منه؛ كما يظنّ، وإنّما من أجل اختبار مطابقته للواقع، ومتطلّبات عصرنا...[2].

إنّ الوصول إلى الكونيّة لا يتحقّق؛ بالانطلاق من استنساخ تجارب الآخرين، ونقلها، وإنزالها بالقوّة على المجال التداوليّ العربيّ الإسلاميّ؛ وإنّما بالانطلاق من الذات، والاغترار بهذه الذات، وبناء هذه الذات من

(1) انظر: عبد الرحمن «الإبداع الفكريّ بين التكامليّة للعلوم والمنظور التأثيليّ، م.س.
(2) انظر: عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص166.

الداخل، من خلال تفاعلها؛ سواء مع المورث الذاتي، أو مع الموروث الكونيّ الإنسانيّ...

وبناءً على هذا، فإنّ من أكبر أخطاء المعاصرين أنّهم ذهبوا إلى تحقير هذا التراث الذاتيّ من غير تحسّب، وما كان يجوز تحقيره من وسائل مقتبسة،وذهبوا إلى تعظيمه من غير تفكّر، وكأنّهم يتنافسون في تثبيط العزائم[1].

إنّ من شأن القراءة التراثيّة الإسلاميّة؛ بآليّات ومناهج منقولة؛ أن تؤدّي إلى تبخيس هذا التراث من جهة، والتنقيص من قيمته، وحمولته الثقافيّة والحضارية من جهة آخرى، بل الوصول إلى التقاطع معه من جهة أخرى...

لقد اتّبع هؤلاء النقّاد مناهج، ووظّفوا فيها مفاهيم جلّها مفاهيم منقولة من ثقافات مخالفة لجنس الثقافة العربيّة الإسلاميّة التي ينتمي إليها التراث. وهذه الطرائق والأساليب المستمدّة من ثقافة الغرب بآليّاتها الاستهلاكيّة، وقد تبيّنت خطورتها في الاستخدام والاستعمال؛ لأنّ تسليط آليّات العقلانيّة النظريّة المجرّدة؛كان لا بدّ أن يفضي إلى قطع الصلات بين أقسام هذا التراث...[2].

إنّ التراث ينبغي أن يحاكم بأدوات إنتاجه، فلا يمكن أن يحاكم بأدوات؛ هي من خارج من التراث؛ إلا على سبيل المقارنة، كما لا يمكن أن يقوم التراث بأدوات وآليّات أنتجها غيره، تتناسب مع المضامين التي ترجع إليها تلك الآليّات...[3].

ومن هنا، فإنّ الوصل بين التراث والمعاصرة، يتميّز باستكشاف الروح التي تحكّمت في هذا التراث؛ سواء أكان هذا التحكّم في المضامين، أم في الآليّات.. وبدون السقوط في الإعجاب بالتراث الذي صنعه الغير.

(1) انظر: عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص166.
(2) انظر: عبد الرحمن، طه: تجديد المنهج في تقويم التراث، ط3، لا.م، لا.ن، لا.ت، ص28.
(3) انظر: م.ن.

4. الإبقاء على الآليّات والوسائل:

إنّ رؤية طه عبد الرحمن للتراث تنطلق من التوجّه الشموليّ؛ في الانطلاق، والبناء، عن طريق التعلّق بالوسائل، والأدوات المنتجة، التي أسهمت بقوّة واضحة في تكاثر مضامين التراث، وعملت على تنوّعه، وتعدّده المعرفيّ، والمنهجيّ؛ فلابدّ من اعتبار التراث نصّاً واحداً، وكتلة واحدة منسجمة، ومتكاملة[1].

وهو يرى أنّ العناية بالمضامين لقيت ما تستحقّ من متابعة، ورصد. لكنّ الجانب الذي تعرّض للإهمال؛ هو الآليّات المنتجة لهذه المضامين، حيث آن الأوان للعناية بالآليّات وإعطاؤها ما تستحقّ من عناية معرفيّة، واهتمام إبستمولوجيّ...[2].

وقد حدّد طه عبد الرحمن طبيعة العلاقة بين الآليّات والمضامين؛ في أبعادها؛ بأنّها علاقة تلازميّة؛ لأنّ كلّ نصّ هو حامل لمضمون مخصوص، وكلّ مضمون مبني بوسائل معيّنة، ومصوغ على كيفيّات محدّدة، بحيث لا يتأتّى استيعاب المستويات المضمونيّة القريبة والبعيدة للنصّ؛ إلا إذا أحيط علماً بالوسائل والكيفيّات العامّة والخاصّة التي تدخل في بناء هذه المستويات المضمونة...[3].

ومن ثمّ، فإنّ أيّ مقاربة في المضامين، أو في المحتويات للنصّ التراثيّ في بنائه الداخليّ، أو في بنائه الخارجيّ، أن تستحضرهذا المعطى التداخليّ، الذي كان قائماً، وحاضراً بشكل ملموس بين العلوم في التراث. فهوحاضر بشكل جليّ في نسقيّة العلوم المشيدة للتراث العربيّ الإسلاميّ.

ومن هنا، فإنّ الوصل بين التراث والمعاصرة يتميّز باستكشاف الروح

---

(1) انظر: عدي، مشروع الإبداع الفلسفي العربي: قراءة في أعمال الدكتور طه عبد الرحمن، م.س.

(2) انظر: ورقة مداخلة الدكتور طه عبد الرحمن في المؤتمر الأول الإبداع الفكري بين التكاملية للعلوم والمنظور التأثيلي لاستشكال المفاهيم، م.س.

(3) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص23.

التي تحكّمت في هذا التراث، والآليّات التي وظّفت فيه، وتطوّرت في أحضانه؛ سواء في محتوياته، أو مضامينه، أو في آليّاتها...

ثانياً: الدعوة إلى تحرير المفاهيم والمصطلحات الفلسفيّة:

1. دلالة مصطلح التداخليّة في العلوم الإسلاميّة عند الدكتور طه عبد الرحمن:

يرى الدكتور طه عبد الرحمن أنّ التداخليّة بين العلوم، كانت من أبرز الخصائص المميّزة للعلوم في مسيرة التراث العربيّ الإسلاميّ، وأنّها وصف علميّ مشترك، وجامع في جميع هذه العلوم؛ بحيث لا يمكن التنكّر، أو التغاضي عنها؛ حتى لا تغيب الاستقلاليّة في العلوم التراثيّة، ويتحقّق التشارك بين هذه العلوم.

فهو من أبرز الباحثين الذين اختاروا الاشتغال على مرجعيّة التداخليّة في العلوم؛ قصد الكشف عن التطوّر الحاصل بين هذه العلوم، وتمثّل الآليّات، والبنيات المشكّلة، والمشتركة بين هذه العلوم، والمنتجة لها. فلقد صرّح الدكتور طه عبد الرحمن، بأنّ التداخليّة بين العلوم،كانت من أبرز الآليّات التي اتّخذها، واستند عليها، واعتمدها، واستعان بها في مقاربته للتراث العربيّ الإسلاميّ، وفي ممارسته، ومدارسته للعلوم التراثيّة، أو في رصده لتاريخ العلوم. كما صرّح بالتزامه بالتداخليّة؛ من حيث هي منهج، في مدارساته للتراث العربيّ الإسلاميّ، أو في بحثه عن الآليّات المنتجة للمضامين المحمولة في هذا التراث[1].

2. الدلالة المصطلحيّة للتداخليّة:

إنّ دلالة هذا المصطلح، عند الدكتور طه عبد الرحمن، في معناه ودلالته العامّة؛ يعني أنّ العلوم في التراث العربيّ الإسلاميّ،كانت

(1) تكرّرت هذه العبارة عند الدكتور طه عبد الرحمن في كتاباته، ولا سيّما كتابه «تجديد المنهج في تقويم التراث». انظر: تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص12؛ الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص123.

متداخلة فيما بينها؛ من حيث الموضوع، والمنهج، ومتبادلة للجهاز المفاهيميّ، ولم تكن منفصلة، أو متباعدة، أو متقاطعة، أو مستقلّة؛ من حيث الموضوعات[1].

وهذا يعني أنّه يستحيل تقويم أيّ إنتاج فكريّ؛ لأيّ أحد من العلماء المسلمين؛ ما لم يقع التسليم بفكرة التداخليّة التي كانت قائمة بين العلوم في مجال التداول العربيّ الإسلاميّ[2]. فالعلوم الإسلاميّة تكاد تكون وحدة متماسكة ومجتمعة،لا يمكن فيها الفصل والتمييز بينها؛ بحيث لا يمكن فصل أيّ فضاء علميّ عن الفضاء العلميّ الآخر؛ فلا يمكن للفقيه الاستغناء عن العقيدة، ولا يمكن لعالم الأخلاق أن يستغني عن الفقه، ولا يمكن للباحث أو المتابع أو الدارس للثقافة الإسلاميّة، ولعلومها، الاستغناء عن أيّ علم من العلوم الإسلاميّة..[3].

فالتداخليّة؛ تعني أنّ العلوم الإسلاميّة تكاد تكون وحدة متماسكة، ومجتمعة، لا يمكن الفصل بينها؛ من حيث الموضوع، أو من حيث المنهج، ولا يمكن فصل أيّ فضاء علميّ عن الفضاء العلميّ الآخر، ولا يمكن للفقيه الاستغناء عن العقيدة، ولا يمكن لعالم الأخلاق أن يستغني عن الفقه، ولا يمكن للباحث أو المتابع أو الدارس للثقافة الإسلاميّة، ولعلومها، الاستغناء عن أيّ علم من العلوم الإسلاميّة..[4].

وممّا ساعد على هذا التكامل والتواصل بين هذه العلوم؛ بجميع فروعها، وأقسامها؛ أصليّة كانت أم خادمة للأصل؛ نقليّة كانت أم عقليّة؛ هو وحدة الإطار والمرجع المشترك الذي يجمع بين هذه العلوم؛ إذ التحمت هذه العلوم في نسق معرفيّ واحد، وتداخلت في نسق وظيفيّ واحد، وفي بناء مشترك؛ من أجل خدمتها للقرآن الكريم، في جميع مستوياته ومكوّناته؛

(1) انظر: الحوار أفقاً للفكر:213؛ تجديد المنهج في تقويم التراث:90.
(2) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص29.
(3) انظر: م.ن، ص23.
(4) انظر: م.ن.

هادفة من هذه الخدمة؛ اكتساب، واستمداد المعاني المحمولة في هذا الخطاب... فأغلب العلوم؛ إنْ لم نقل كلّها؛ كانت موصولة بالنصّ القرآنيّ.

ومن هنا، فقد اتّجهت كلّ العلوم نحوالقرآن الكريم؛ بياناً واستنباطاً واستمداداً وتفسيراً وتأويلاً وتوثيقاً وتحقيقاً وقراءةً.

وهو المعطى الذي يفسّر لنا أنّ العلوم؛ رغم اختلافها، وتباينها؛ من حيث الأشكال، والأنساق، والبنيات؛ فقد اتّجهت جميعها في خطى ثابتة إلى تأسيس علوم البيان، والاستمداد، والفهم.

ويدعو الدكتور طه عبد الرحمن، في كثير من المناسبات، إلى ضرورة التسليم بالمنهج التداخليّ، والتكامليّ، الحاضر بقوّة، والقائم بين العلوم الإسلاميّة، واتّخاذ هذا المنهج سبيلاً، ودليلاً، ومسلكاً، وطريقاً في فهم أيّ منتوج لعالم من علماء المسلمين أو تحقيقه، وفي تقويم مصنّفاتهم، ومؤلّفاتهم، وكتبهم التي صنّفوها وألّفوها في مختلف العلوم.

3. أثار هذا التداخل بين العلوم:

ومن بين أبرز أثار هذا التداخل بين العلوم -كما دلّ على ذلك الدكتور طه عبد الرحمن-؛ الآليّة أو التراتب؛ ويعني بها تصنيف العلوم إلى: علوم أصليّة وعلوم خادمة للأصل، أو علوم مقصودة وعلوم خادمة للعلوم المقصودة، أو علوم الوسائل وعلوم المقاصد؛ وهو التصنيف الذي أخذ به طه عبد الرحمن، وأخذ به القدماء؛ حيث ميّز ابن رشد بين العلوم المسدّدة وغير المسدّدة؛ وهي المسمّاة عند طه عبد الرحمن بعلوم الوسائل وعلوم المقاصد[1]؛ حيث قال في كتابه الضروريّ في صناعة النحو: «إنّ العلوم صنفان: علوم مقصودة لنفسها وعلوم مسدّدة للإنسان في تعلّم[2] العلوم المقصودة في نفسها»[3]. ومن العلوم المسدّدة: علم النحو، وعلم المنطق؛

(1) على هذا الأساس؛ جرى اختيار الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه «تجديد المنهج في تقويم التراث»، م.س، ص23.

(2) انظر: ابن رشد، الحفيد: الضروري في صناعة النحو، ص2.

(3) انظر: م.ن، ص22.

«فمنزلة النحو كمنزلة المنطق؛ هما علمان مسدّدان؛ إلا أنّ الأوّل يسدّد اللسان، والثاني يسدّد العقل والفكر؛ حتى لا يقع غلط فيهما»[1].

ومن متعلّقات هذا التراتب؛ هو أنّ المعرفة الإسلاميّة لا يمكن أن نعرفها بحقّ؛ إلا بتركيب علومها، وبترتيب أنساقها، وبتمثّل مستويات التداخل فيها. وما يشهد لهذا النوع من التداخل؛ هو التراتب، والتفاعل،؛ فأمّا التراتب، فقد تولّى فلاسفة الإسلام مهمّة ترتيب العلوم التي عرفتها الثقافة الإسلاميّة، فظهرت كتب خاصّة بتصنيف العلوم؛ منها: إحصاء العلوم للفارابي، ومراتب العلوم لابن حزم، ومفاتيح العلوم للخوارزمي، وأبجد العلوم للقنوجي؛ حيث تجسّد هذه المؤلّفات -بشكل واضح- البعد التكامليّ والتداخليّ بين العلوم..

إنّ هذه الآليّة التي تشيّد التراث؛ تستوجب قراءة هذا التراث بآليّاته المأصولة، لا بآليّاته المنقولة. ومن شأن الإغراق في الآليّات المنقولة؛ أن تؤدي «إلى إخراج المتلقّي العربيّ من التعلّق بالتراث الذي صنعته أمّته إلى التعلّق بالتراث الذي هو من صنع أمّة سواها..»[2].

4. رحلة المفاهيم:

يشير الدكتور طه عبد الرحمن إلى الأهمّيّة التي اكتسبها البعد التكامليّ الذي كان قائماً بين العلوم التي نشأت في الحضارة العربيّة الإسلاميّة. فكان من نتائج هذه التكامليّة وامتداداتها؛ أنْ رحَّلت مجموعة من المصطلحات والمفاهيم، من حقولها الأصليّة، وانتقلت إلى حقول معرفيّة أخرى؛ مستقبلة لها، تتقاسم معها الموضوع، وتشترك معها في المنهج.

وهذا التوجّه في رحلة المفاهيم واكتسابها لمفاهيم جديدة، غير المفاهيم التي كانت عليها في أصلها الأوّل؛ ينبغي استحضاره في أيّ

---

(1) ابن رشد، الضروري في صناعة النحو، م.س، ص22.

(2) عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص91.

مقاربة، أو مدارسة لأيّ حقل معرفيّ في التراث العربيّ الإسلاميّ.. خاصّة الحقل اللغويّ البيانيّ الذي استثمرت فيه كثير من المفاهيم، وفيه رحلت وانصهرت هذه المفاهيم؛ منتقّلة من أصلها الأوّل، ومودعة في علم أخر[1].. ويُعدّ هذا الانتقال؛ من الأساسيّات والمميّزات التي طبعت التراث الإسلاميّ. ومن ثمّ لا ينبغي التنكّر لهذا العبور أو التغاضي عنه أو إهماله أو إبعاده لكلّ توجّه أو مقاربة، أو مدارسة، توجّهت نحو البحث الأكاديميّ في التراث العربيّ الإسلاميّ، وبخاصّة ما كان من قبيل البحوث التي اختارت وجهة الدراسة المصطلحيّة؛ تأصيلاً وتنظيراً، وتوصيفاً وتحديداً...

ومن أثار هذا الانتقال؛ اكتساب هذه المفاهيم لمعانٍ جديدة غير المعاني التي كانت عليها في علومها الأصليّة. وهذا مؤشّر واضح على مدى ضرورة التمييز بين هذه المفاهيم في الدلالة، والمعنى، وخاصّة في حقولها المعرفيّة الأصليّة أو في الحقول المعرفيّة الأخرى المستقبلة لها، والتي انتقلت إليها هذه المفاهيم... إنّ انتقال المفاهيم ظاهرة علميّة عرفتها الثقافة العربيّة الإسلاميّة؛ رغم أنّ هذا الانتقال يطرح مجموعة من المشاكل المعرفيّة والإبستمولوجيّة...[2].

ومن المقتضيات المنهجيّة التي يدعو إليها طه عبد الرحمن؛ هو تحرير المفاهيم، ومراجعتها ونقدها، و«ليس معنى النقد -هنا- هو القدح والإبطال؛ وإنّما هو وسيلة للتحقيق من قيمة ما يَرِد علينا، حتى نكتسب الملكة على ضبط المفاهيم...»[3].

وهذا ما يقتضي في طلب العلوم التراثيّة؛ معرفيّاً ومنهجيّاً؛ استحضاراً قبليّاً، وأوّليّاً لمجموعة من المعارف والعلوم المركّبة لهذا التراث؛ لكون هذه العلوم علوماً جامعة ومشتركة في مجموعة من القضايا، والأهداف،

(1) انظر: البوشيخي، عز الدين: مفهوم المصطلح ووظائفه، ضمن أعمال ندوة: المدخل إلى الدراسة المصطلحيّة، الشارقة، المنتدى الإسلامي، ماي2013م.
(2) انظر: انتقال النظريّات والمفاهيم، ندوة من منشورات كلّيّة الآداب، الرباط، العدد76، 1999م.
(3) عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص166.

والمسائل النظريّة؛ وخاصّة ما كان من قبيل: المرجعيّات والمفاهيم والمصطلحات التي انتقلت من حقولها المعرفيّة إلى حقول معرفيّة أخرى، مكتسبة بهذا الانتقال والعبور لمعانٍ ودلالات جديدة، ومتداخلة في الوظائف والمهام والأدوار. والقاسم الذي يجمعها؛ هو خدمتها للنصّ القرآنيّ؛ توثيقاً واستمداداً وبياناً وتفسيراً...

وهذا المعطى هو الذي جعل الدكتور طه عبد الرحمن يرى أنّ المجال التداوليّ العربيّ الإسلاميّ، يعتمد أساساً على المحدّد اللغويّ؛ باعتباره الوسيلة للتخاطب، والتبليغ عن المقاصد والأغراض المحمولة في النصّ المؤسّس؛ الذي هو القرآن لكريم...[1].

5. الموسوعيّة بين العلوم:

يرى الدكتور طه عبد الرحمن أنّ العلوم الإسلاميّة تتّصف بوصف الموسوعيّة في التأليف، والتصنيف والكتابة؛ وهي من أبرز الخصائص التي ميّزت التراث العربيّ الإسلاميّ[2].

وهـذا يعني أنّ التداخل الحاصل بين العلوم اللغويّة، والبلاغيّة، والدلاليّة؛ في العلوم المقصودة، أو علوم المقاصد؛ جعل العلوم محكومة بالموسوعيّة؛ ومن بين تلك العلوم: علم التفسير. والذي جعل هذا العلم يتميّز بطابع الموسوعيّة، والشمولية والكلّيّة؛ هو امتزاج علوم الوسائل وعلوم المقاصد.

وعلم التفسير؛ علم مقصود بذاته؛ بحيث احتضن هذا العلم عدداً من العلوم، وامتزجت فيه كثير من الفنون، وتطوّرت في أحضانه كثير من المفاهيم، وتداخلت فيه عدد كبير من المصطلحات، «فلا يكاد الباحث يجد علماً من العلوم الإسلاميّة؛ إلا وفي التفسير له حضور...»[3]، فتحقّق

(1) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص245.
(2) انظر: م.ن، ص91.
(3) المالكي، محمد: دراسة الطبري للمعنى، ط1، المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1417هـ.ق/1996م، ص22.

لعلم التفسير أن يسجمع ما تفرّق في غيره من العلوم، فتجد فيه علم البلاغة وعلم النحو وعلم المفردات، وعلم التصريف..

ومن هنا، كان التأليف الموسوعيّ من أبرز الآثار المجسّدة لهذه التداخليّة، والتكاملية، القائمة بين العلوم في التراث العربيّ الإسلاميّ.. ومن تبعات هذه الموسوعيّة؛ هو ما ذكره الدكتور طه عبد الرحمان في حديثه عن تقارب العلوم المأصولة مع العلوم الموصولة المنقولة؛ مثل المنطق؛ ومستويات حضوره في الممارسة الإسلاميّة؛ وهو صعوبة تقويم إنتاج أيّ أحد من العلماء في الإسلام، أو أحد حكمائهم؛ ما ل لم يقع التسليم؛ بأنّ إنتاجه الفكريّ قد تداخل مع أقرب العلوم، في المجال التداوليّ العربيّ؛ ومنها: علم المنطق..[1].

رابعاً: المصادرة والمعارضة للتوجّه التقاطعي في التراث العربيّ الإسلاميّ:

إنّ الدكتور طه عبد الرحمن كان من أبرز المعترضين، على الذين اختاروا مصادرة التراث والاعتراض عليه، أو التقاطع معه، أو قراءته خارج منطقة التداول العربيّ الإسلاميّ، وبمنأى عن منطق الشروط الداخليّة التي أنتجته، وركّبته؛ بدعوى أنّ التراث العربيّ الإسلاميّ، ظلّ حاضراً بقوّة في وجدان الإنسان العربيّ، فغير متيسّر الانفصال عنه أصلاً، وواقعاً؛ لامتدادات هذا التراث وتجذّره في شخصيّة الإنسان العربيّ، ومقوّماته النفسيّة والإدراكيّة. فكان شديداً على المعترضين على الاختيار التكامليّ في قراءة التراث العربيّ الإسلاميّ، والداعين إلى التقاطع مع التراث في قرائته؛ بدعوى أنّه قد انتهى عهده.

إنّ التنكّر للتراث، كان من عواقبه، هو تحقير هذا التراث، من غير تحسّب؛ وهو الأمر الذي فوّت الفرصة على هؤلاء من أجل الإنصات العميق

(1) انظر: عبد الرحمن، طه: مشروعيّة المنطق، مجلة المناظرة، العدد الأوّل، السنة الأولى، 1989م، ص92.

للخطاب التراثيّ، فأدّى هذا التنكّر إلى التوجّه إلى النسبيّة والتفاضل؛ بدل الوحدة والتكامل في الخطاب التراثيّ، وطلب الاسترقاق من خلال الاستغراق في المناهج المجتثّة...[1].

ويرى طه عبد الرحمن أنّ هذا الانقطاع عن التراث غير ممكن، أو غير متيسّر للقارئ العربيّ؛ ما دام هذا التراث حاضراً فينا بقوّة، وحاضراً في أحاسيسنا، وفي وجداننا. وكان من أثار هذا الردّ أنْ عمل كثير من الباحثين على مراجعة أقوالهم، واختياراتهم في مجاوزة الطروحات، والتوجّهات والرؤى، والاختيارات، والمواقف التي ناصرها المشتغلين بالنظم المعرفيّة، في نشئتها وتطوّرها، ودافع عنها المهتمّون بتاريخ الأفكار، أو بصيرورة الأنساق المعرفيّة وطورها في الإسلام، والتي تنزع نحو مناصرة التوجّه، والرفع من الاختيار، والموقف القائل باستقلاليّة العلوم في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وتقاطعها؛ من حيث الموضوع والمنهج، واستقلاليّتها من حيث الإطار المرجعيّ المشيّد لها، أو من حيث الجهاز المفاهيميّ المتداول فيها. وقد ترتّب على هذه الاستقلاليّة والفصل بين النظم بالنسبة للقائلين بها، والمناصرين لها، والمدافعين عنها؛ القول بتفاضل بعض العلوم على بعضها الآخر؛ وذلك بتبخيس بعض المعارف، على حساب بعضها الآخر، والحطّ من قيمة بعض العلوم، ومكانتها بين العلوم، وتحقير بعضها الآخر، والرفع والتعظيم لبعضها الآخر. وهو ما نجم عنه مصادرة، ومعارضة اختيار الوحدة والتكامل التي كانت قائمة بين العلوم، وحاضرة بين المعارف، وبالتالي التنصيص على استقلاليّة المفاهيم المتداولة في هذه العلوم، والمشكّلة لجهازها المعرفيّ، بحكم اختلاف المرجع، وتبعاً للحقول المعرفيّة المتواجدة فيها، وهو ما يعني تباعد المصطلحات المشكّلة والحاضرة في جميع الحقول المعرفيّة التي

(1) انظر: عبد الرحمن، طه: سؤال الأخلاق: مساهمة في نقد الأخلاق للحداثة الغربيّة، بيروت، 2000م، ص66.

نشأت، وتطوّرت في أحضان الحضارة العربيّة الإسلاميّة[1].

ومن هنا، كانت دعوة التداخليّة بين العلوم عند طه عبد الرحمن؛ ردّ فعل على الاتّجاه القائل بالتقابليّة، أو التقاطعية، والتفاضليّة بين العلوم الإسلاميّة والاستقلال بين النظم المعرفيّة في مواضيعها، أو في مناهجها، أو في جهازها المفاهيميّ المعرفيّ؛ وهو الاتّجاه الذي كان يقول بثنائيّة المنقول والمعقول، أو بثنائيّة المعقول واللامعقول، أو المادّة والماهية. حيث تعيش هذه الثنائيّات صراعاً وتقابلاً بشكل مستمرّ، وبدون انقطاع؛ وهو ما يمنحها الاستمرار والتطوّر، وتكون النهاية عادّة لأحد الإطراف، على حساب الآخر..[2].

ومن أبرز الوجوه التي سقطت في هذا الاختيار التقاطعيّ، في قراءة التراث؛ الدكتور محمد عابد الجابري، فقد اشتغل الجابريّ بمنهج اجتزاء المضامين من التراث وتقطيعها. وهذا ما أدّاه إلى السقوط في تقسيم التراث إلى أجزاء متناثرة، ومتقابلة؛ فيكون منها؛ ما يعدّ، ويعتبر، ويستحقّ المتابعة، ومنها؛ ما يكون مردوداً، لا يستحقّ الدرس بحجّة أنّه ميّت، لتحلّ النزعة التجزيئيّة؛ وهي النزعة التي تقسّم التراث إلى قطع متمايزة، ومتباعدة غير متجانسة،في ما بينها، وتفضّل بعضه على بعضه الآخر.

وما يزيد من هذا الإشكال؛ هو الزهد في نقد الآليّات المستثمرة في قراءة التراث، وهذا العائق يعود إلى تغليب المضمون على حساب الشكل. «فالنزعة المضمونيّة تتأسّس عليها النزعة التجزيئيّة، وتنطلق منها. وهو ما انتهى بالجابري إلى تقسيم المعارف التراثية وتوزيعها إلى ثلاثة نظم؛ وهي: البيان، والعرفان، والبرهان، فلا يرى رابطاً بين هذه الدوائر

(1) انظر: ردّ الدكتور طه عبد الرحمن على القائلين بعدم تداخل العلوم في التراث العربيّ الإسلاميّ؛ في كتابه: تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص23.

(2) انظر: العالم، محمد أمين: ثنائيّة النقل والعقل في التراث العربيّ الإسلاميّ، مجلة الثقافة الجديدة، العدد10، 1986م.

الثلاث؛ إلا المصارعة، وليست المصالحة[1].

بهذا الاختيار، وهذا التوجّه؛ يكون الجابريّ قد مارس في قراءة التراث المنهج التجزيئيّ، والمسلك التفاضليّ؛ بدل المنهج الشموليّ والتداخليّ[2]. فهو يقدح، وينتقص، ويستصغر من نظام العرفان، ويبخّس نظام البيان، ويرفع، ويعظم من شأن البرهان..[3].

والسبب في السقوط التفاضلي بين المعارف، التي شهدتها النظم المعرفيّة، في التراث العربيّ الإسلاميّ؛ هو هذا الاختيار الذي يتحدّد في اختيار الآليّات المنقولة، والتوسّل بها في قراءة التراث العربيّ الإسلاميّ، والفلسفة الإسلاميّة؛ وهي آليّات منقولة وغير مأصولة، مستمدّة ومستخلصة من الفلسفة الغربيّة، جرى العمل على توظيفها في الفلسفة العربيّة الإسلاميّة؛ ما أدّى إلى السقوط في النظرة التجزيئيّة للتراث..[4].

إنّ أنموذج الجابريّ في تقويم التراث، يقع في تعارضين اثنين؛ أحدهما: التعارض بين القول بالنظرة الشموليّة والعمل بالنظرة التجزيئيّة، والثاني: التعارض بين الدعوة إلى النظر في الآليّات، وبين العمل بالنظر في مضامين الخطاب التراثيّ[5].

ولا يعني هذا الكلام؛ معارضة الوافد، والمنقول من الغرب؛ وإنّما الدعوة إلى تصحيح هذه المفاهيم؛ فـ«المنقول عن الغير لا بدّ أن يخضع لمجموعة من التحوّلات التصحيحيّة المختلفة؛ إنْ في مضمونه، أو في صورته التي تصير ملائمة مع المقتضيات التداوليّة للتراث العربيّ الإسلاميّ»[6].

(1) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص33.
(2) انظر: م.ن.
(3) انظر: م.ن، ص223.
(4) انظر: م.ن، ص82.
(5) انظر: م.ن، ص23.
(6) عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، م.س، ص28.

إنّ الوصول إلى الكونيّة، لا بدّ من أن يمرّ؛ بالانطلاق من الذات، وبناء هذه الذات من الداخل، وليس من الوافد عن اللآخر. وهذا الاختيار من أساسيّات المنطلق الإبيستمولوجي الذي كان ينطلق منه طه عبد الرحمن؛ من أجل تأسيس نظرة جديدة للتراث العربيّ الإسلاميّ؛ فمن مداخلها الأوّليّة؛ تقويم اعوجاج الخطابات الفلسفيّة الفكريّة، التي قاربت التراث وقرأته، والانتقال إلى خطوة أخرى موصلة ومتّجهة إلى البديل المطلوب..[1].

خامساً: التداخليّة في العلوم الإسلاميّة: علم أصول الفقه أنموذجاً:

إنّ من أبرز العلوم التي انتقاها الدكتور طه عبد الرحمن لتجسيد مصطلح التداخليّة بين العلوم وتمثيلها؛ هو «**علم أصول الفقه**»؛ لأنّه من أبرز العلوم تجسيداً للتكاملية بين العلوم وفي التراث العربي الإسلاميّ.. بل إنّ علم أصول الفقه، تحقّق فيه التداخل؛ بقسميه الداخليّ والخارجيّ...

1. أقسام التداخليّة بين العلوم:

قسّم الدكتور طه عبد الرحمن التداخل إلى قسمين:

- التداخل الداخليّ؛ وهو التداخل الذي يحصل بين العلوم التراثيّة الأصليّة؛ من دون الأخذ بالعلوم المنقولة، أو الدخيلة غير المأصولة.

- التداخل الخارجيّ؛ وهو الذي يحصل بين العلوم التراثيّة المأصولة والعلوم المنقولة من ثقافات أخرى..[2].

2. التداخليّة في علم أصول الفقه:

يُعدّ علم أصول الفقه من أبرز العلوم تجسيداً لمظهريّة التداخل الداخليّ في العلوم الإسلاميّة؛ فهو علم جامع لعدّة معارف وعلوم إسلاميّة متنوّعة.

(1) عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، م.س، ص28.

(2) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص76.

وعلم أصول الفقه؛ من أهمّ العلوم التي أنتجتها الحضارة الإسلاميّة؛ بحيث تداخل في تركيب هذا العلم مجموعة من الأشكال والأنساق المعرفيّة والعلميّة؛ حتى غدا أحد العلوم المنهجيّة العريقة في الثقافة العربيّة الإسلاميّة[1].. وهو وثيق الصلة بالفقه؛ لأنّه جاء لاستخراج مبادئه، وتحديد مناهجه، ووضع قواعده..[2].

وبحكم هذه التداخليّة المتجسّدة في علم أصول الفقه، يدافع الدكتور طه عبد الرحمن عنه؛ في بعده الاستدلاليّ المتميّز به، ومن حيث هو علم يعمل على استشكال القضايا والإشكاليّات..[3].

3. التداخل الداخليّ في علم أصول الفقه:

يرى الدكتور طه عبد الرحمن، أنّ علم أصول قد تداخلت فيه تداخلاً داخليّاً علومعدّة؛ من أبرزها: علم اللغة، وعلم الكلام، وعلم المنطق. فعلم أصول الفقه يتأسّس في الجزء الأكبر منه على اللغة..؛ لأنّ وظيفة هذا العلم هي ضبط عمليّة الفهم والاستدلال وتسديد الاستنباط. وموضوع هذا العلم هو الاستدلال على الأحكام الشرعيّة، والأساس في الاستدلال على الأحكام الشرعيّة؛ هو فهم النصّ. وهذه القاعدة تكاد تشكّل منطلقاً منهجيّاً عامّاً عند جميع الأصوليّين؛ بمختلف مدارسهم، ومنازعهم ومناهجهم، بحيث لا ينضبط الاستدلال على الأحكام الشرعيّة؛ إلا بفهم النصّ؛ ومسلكه؛ هو التمكّن من اللغة العربيّة ومن علومها...[4].

4. التداخل الخارجيّ في علم أصول الفقه:

لقد تحقّق التداخل الخارجيّ في هذا العلم؛ عن طريق تقريب المباحث المنطقيّة إلى علم أصول الفقه؛ بحيث حصل هذا التداخل بين العلوم الأصليّة، والعلوم المنقولة، والعلوم الدخيلة. ومن أبرز العلوم تداخلاً

(1) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص54.
(2) انظر: م.ن، ص55.
(3) انظر: عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص165.
(4) انظر: الفصل المخصّص لعلم أصول الفقه، في كتابه: تجديد المنهج، م.س، ص54.

في علم أصول الفقه؛ علم المنطق؛ بحيث تفاعلت المباحث المنطقيّة مع المباحث اللغويّة والأصوليّة. وهذا ما يظهر جليّاً في أعمال أبي حامد الغزالي وابن حزم الأندلسيّ[1].

ومن مستويات هذه العلاقة التبادليّة والتراتبيّة بين علم المنطق وعلم أصول الفقه التي كشف عنها الدكتور طه عبد الرحمن؛ هو ترتيبه هذه العلاقة على هذه الشكل الاستدلاليّ؛ حيث عدّ علم المنطق مقدّمة لجميع العلوم[2]، وجعل علم أصول الفقه جزءاً من علم المنطق...[3].

خاتمة:

لقد عمل الدكتور طه عبد الرحمن على اختيار منهج خاصّ؛ وصارم في الدراسة المصطلحيّة. ويقوم هذا المنهج على استمداد المصطلح، ومتابعته، وبحثه من داخل التراث، وليس من خارجه، فهذا المنهج كان من أبراز مكوّنات البناء المنهجيّ في تحقيق المصطلح في فكر المفكّر الدكتور طه عبد الرحمن....

وقد عمل على تعيين خصائص المصطلح، وإبراز مفارقاتها، مع غيره من المصطلحات. والعمل على تحقيقه، وبيان أصوله المرجعيّة، ولا سيّما في الجهة التي نشأ فيها، والتي انتقل منها، وإليها[4].

كما عمل على مكاشفة خطورة استعمال المصطلح، في غير موضعه، وفي غير مكانه الطبيعيّ، أو في عدم التبصّر بأصوله المرجعيّة والتداوليّة، أو في تحوّلاته السياقيّة، والاستعماليّة، أو في نقله عن المعرفة الأصليّة التي نشأ فيها، والعمل على إسقاطه في غير مجاله التداوليّ.

فلقد كان دائم التصريح بأنّ المنقول من الغير يخضع لتحوّلات

(1) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص90؛ 286.
(2) انظر: عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص166.
(3) انظر: عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان، المغرب، المركز الثقافيّ العربيّ، 1998م، ص16.
(4) انظر: في «فقه المصطلح الفلسفيّ العربيّ»، مجلة المناظرة، العدد4-5، 1993م، ص71.

تصحيحيّة مختلفة؛ إنّ في مضمونه، أو في صورته التي تصير ملائمة مع المقتضيات التداوليّة للتراث[1].

لقد كان شديد اللهجة على من اختار إسقاط مصطلحات أجنبيّة في قراءة التراث؛ من دون التبصّر بمرجعيّاتها التداوليّة، ومن دون استحضار لخلفيّاتها العقديّة؛ معتبراً ذلك من تجلّيات القصور المنهجيّ في ضبط المصطلح.. فهو بهذا التوجّه، وبهذا الاختيار، وبهذا الاعتبار؛ كان مفكّراً ومبدعاً لعدد من المصطلحات، ومحقّقاً لعدد من المفاهيم التي لقيت رواجاً واسعاً، واستحساناً بين الدارسين، وقبولاً بين المشتغلين بالدرس المصطلحيّ في التراث العربيّ الإسلاميّ.

إنّ الإمساك بفكر طه عبد الرحمان؛ يتحدّد بمدى الوقوف على هذه الاجتهادات، وبخاصّة الاجتهاد في اتّجاه تحقيق المفاهيم والمصطلحات التأثيليّة، ومنحوتاتها المفاهيميّة؛ وهي المصطلحات، التي نحتها الدكتور طه في جلّ مصنّفاته، وفي كتبه؛ وهو ما يستلزم منه تشييد معجم للمصطلحات الخاصّة بالدكتور طه عبد الرحمن.

إنّ الإمساك بهذا المعجم؛ رهن بمدى تمثّل الإشكالات الكبرى في متن الدكتور طه عبد الرحمن وفكره، فهذا العمل يعدّ منهجاً ملحّاً ومستعجلاً للباحث؛ لتمثّل فكر طه عبد الرحمن.[2].

كما كان كثير النكير على من اختار القراءة التجزيئيّة للتراث؛ لأنّ من مخاطر هذه القراءة؛ هو أنّها تنتهي إلى ترك التراث؛ إمّا جزئيّاً، وإمّا كلّيّاً.[3].

ومن هنا، فإنّ النظرة الداخليّة تنظر إلى التراث؛ انطلاقاً من الآليّات التي أنتجت ذلك التراث؛ باعتبار أنّ المضامين وآليّات إنتاجها؛ تشكّل وحدة متكاملة، ومنسجمة؛ تتحقّق فيها كلّ مواصفات الانسجام والتوافق.

---

(1) انظر: عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، م.س، ص126.

(2) انظر: النقاري، حمو: منطق تدبير الاختلاف من خلال أعمال طه عبد الرحمن، ص8.

(3) انظر: عبد الرحمن، الحوار أفقاً للفكر، م.س، ص134.